تعالق النص الروائي بالتراث الشعبي.

د. عبد القادر عميش.

جامعة حسيبة بن بو علي- الشلف -الجزائر-

في البدء يجب تحديد وضبط مفهوم التراث الشعبي، لأن في تحديد المفهوم يكمن الاختلاف وتتباين الرؤى النقدية، وتتعدد زاوية الرؤية والمفهومات.

فقد ير ى بعض الدارسين أن لفظة (التراث) يقابلها (المأثور الشعبي) أو مصطلح (الفولكلور). فقد جاء في معجم الفولكلور لـــ: ليتش مجموعة من التعريفات المتباينة، وقد ورد فيه العديد من الآراء، والتفسيرات لدارسين مختصين في علم الفولكلور. تناولت هذه الدراسات مفهوم التراث وتعريفاته المختلفة، من ذلك أنه يشمل الموروث من الشعر والنثر، والمعتقدات الشعبية والخرافات، والعادات وأشكال الأداء من رقص وألعاب. وأكد بعض هذه الدراسات أن الفولكلور ليس العلم الذي يتناول الشعب، ولكنه علم الشعب التقليدي وشعر الشعب.

وقد نبه سعيد يقطين إلى اللبس الذي يصاحب كلمة التراث فعرفه بأنه: (..مفهوم ملتبس فهو يعني في مختلف الأبحاث التي تناولته كل ما خلفه لنا العرب والمسلمون من جهة، ويتحدد زمنيا بكل ما خلفوه لنا قبل النهضة من جهة ثانية. وهذا التحديد نجده يتسع ليشمل كل الموروث المكتوب والمحكي، وكل الآثار التي بقيت من عمران وعادات وتقاليد. ولها صلة وثيقة بالحقب الخالية. هذا الشمول والاتساع لا يمكن إلا أن يدفع إلى الالتباس ويخلق الإيهام..)[1]

وحتى لا ننـــزاح بدراستنا هاته بعيدا عن محور مداخلتنا والتي حددناها في فعل التعالق ما بين شظايا النصوص التراثية الشعبية والنص السردي الروائي بالذات، نشير أولا إلى أنواع المنصوصات المتفاعلة في النص الروائي بصفته الخطاب السردي المفتوح على شتى النصوص الشعبية. ومنها الشعر الشعبي والغناء والأقوال المأثورة والأمثال والحكايات الخرافية والشعبية أو القصص الساذجة والاحتفالات والطقوس الموسمية أو السنوية وغيرها ومن التعابير المعبرة عن ذهنية وتفكير الشعب.

كما يراعى في هذه الأشكال والأنواع الشعبية مستوى الرسوخ والترسب في ذاكرة الأكثرية لا الأقلية.

---

1 – د. سعيد يقطين. الكلام والخبر. مقدمة للسرد العربي. المركز الثقافي العربي. ط1. 1997.ص: 47

وقد اهتم علم الفولكلور والأنثروبوجيا بجمع التراث الشعبي وتنظيمه ودراسته، لفهمه أكثر، دراسة روعي فيها الجانب العلمي والإحصائي، والنفسي، والتاريخي وغيره من الضوابط الإجرائية والمنهجية، بغية التعرف على مغزى الموروث الحكائي والخرافي. ومن خلال الإجابة عن سؤال افتراضي: ما الذي جعل هذه الحكايات والخرافات الشعبية تصمد أمام ذوق العصر، ورقي الثقافات ومظاهر التحضر التكنولوجي والعلمي المبهر؟ (فلا بد من أن تحتوي على مغزى ولا بد من أن يصبح اللامعقول فيها معقولا. كما لابد أن ينتظم الخلط في شكل شائق منظم)[1]

ونظرا لأهمية التراث الشعبي الذي يمثل سجل الشعوب وذاكرتها وتفكيرها في جانب حياتها الساذجة والعفوية، فإن الأمم، على درجات اختلافاتها وتكوينها، تعود إلى تراثها السابق (في أوضاع تاريخية محدودة يمليها عليها واقع التطور الذي تعرفه في صيرورتها. قد يكون هذا الالتفات بمثابة الطاقة الدافعة للتحول والانطلاق، بناء على وعي جديد، يتحقق على أساس العلاقة المتخذة من التراث. وإنتاج الوعي الجديد لا يتأسس إلا على قاعدة تقدم معرفة جديدة، وجذرية. وقد يكون رافدا من روافد تثبيت الهوية الثقافية والاجتماعية ونظم عناصرها ومكوناتها أمام العناصر الطارئة والتحولات التاريخية.)[2]

تعالق النص الروائي بالتراث:

يشكل حضور التراث في النص السردي الروائي بصفته سياقا ثقافيا ومعرفيا. (تحاورا صريحا بين زمانين ثقافيين: زمن ثقافي غائب وزمن ثقافي حاضر. ومن جهة أخرى تجسيد لمختلف البنيات الائتلافية، ضمن نسيج النص الحاضر. إن توظيف التراث في النص السردي والرواية بصفتها مجالا سرديا أكبر مفتوحا على كل التجارب الإبداعية وغير الإبداعية، يستدعي شظاياها المنتقاة ليدمجها في فضائه مانحا إياها دلالات جديدة مغايرة لدلالاتها السابقة، ضمن نصها الأصلي) [3]

إن فعل التعالق الحاصل ما بين الخطاب الشعبي والنص السردي الروائي (النص الماضي والنص الحاضر) يمثل بشكل إدغامي تحاور الفاعل (الكاتب) مع الصوت الشعبي الموغل في الذاكرة الجماعية الشعبية كاشفا عن بنية تأسيسية لمقولين متباينين من حيث المد الزمني – الخط الكرونولوجي- للمنتوج الثقافي عبر مراحله المتعاقبة. وهما يؤسسان لبنية تخاطبية معاصرة، وهو ما يمكن وسمه حاضر

---

1 – فردريش فون دير لاين. الحكاية الخرافية. نشأتها,منهج دراستها, فنيتها.تر: د/نبيلة إبراهيم, مر:د/ عزالدين اسماعيل. دار القلم بيروت لبنان.ط1.1973. ص: 21

2 – د. سعيد يقطين. الكلام والخبر. م. س. ص: 40

3 – د. سعيد يقطين. الكلام والخبر. ص:41

الترهين الإبداعي المبني على ثنائية التناص – المتعلق والمتعلق به.– ضمن بنية تعاشقية وهذه البنية المركبة هي بنية التناص الجامعة للمقول الشعبي والمقول الإبداعي (الروائي) وهذا التعالق من شأنه منح النص الروائي مفهوما معرفيا مغايرا لبنية التراث الشعبيي، أكثر جدية وأكثر إدراكا ومعاينة. وهو ما يسميه: أمبرتو إيكو: سيميوطيقا التراث.

يقول إمبرتو إيكو في شأن سيميوطيقا التراث: (إن العمل على تطوير الفكر لا يعني رفض الماضي بالضرورة، إننا نعيد فحصه ليس فقط بهدف معرفة ما قيل فعلا، ولكن أيضا بهدف معرفة ما يمكن أن يقال، أو على أقل ما يمكننا قوله الآن...بناء على ما قيل سلفا).[1]

يشكل تعالق التراث بالنص الروائي من جهة تعالق الماضي بالحاضر. تعالق المعرفي الشعبي بالمعرفي الرسمي. ذلك لأنه كثيرا ما يلتبس مفهوم التراث بمفهوم الماضي. وكما أن للماضي حضوره في الحاضر، فإن للحاضر حضوره في الماضي على جميع الأصعدة المعرفية والاجتماعية والتاريخية؛ بمعنى: (أن له وجودا تاريخيا في الماضي (وجود بالمعنى الأنطولوجي)، أما بالمعنى المعرفي (الإبستمولوجي) فالماضي مستمر يشكل الحاضر. كما يعيد وعينا الراهن إعادة تشكيله. إن العلاقة بين الماضي والحاضر – بهذا الفهم – علاقة جدلية–)[2]

إن ما يقوم به النص الروائي هو أنه يقدم لنا (للقارئ) شظايا نصوص تراثية كما أنه يمنحنا قراءة مغايرة للتراث الشعبي. من خلال قراءتنا للنص الحاضر (المتن الروائي). إنه يدمجه في تقنياته السردية وفي فكره المعاصر النير. إنه يمنحه حضورا إبداعيا مغايرا لما كتب به، ومغايرا لما كتب من أجله. إنه تشبيب للنص الشعبي وتفصيح (ضمن إطار الفصيح) وتلك ميزة من مميزات التناص. ضمن تأطير فكري وأسلوبي حداثي.

ومن جهة فإنه إشراك صريح للآخر الموغل في صمته وغيابه، الآخر الذي هو صوت الفطرة وذاكرة المجتمع الساذج أو المجتمع الطفل.

إن توظيف التراث في النص السردي يمثل إشراك الآخر بثقافته وصوته (مقوله) في إنجاز أفكارنا وخطاباتنا السردية، إننا نمنحه مقاما بيننا، نتوقف عن الكلام المباح لنستمع إليه يخاطبنا من موقعه البعيد، من زمنه الغائب. إننا نقر له بالنموذجية والفحولة اعترافا منا بحتمية وأحقية السياقات الثقافية والفكرية التي تفرض نفسها كحتمية فكرية وإبداعية. قدر النص أن يتناص.

1- U/ECO Sémiotique et philosophie du languange buf 1988p13

2 – د. نصر حامد أبو زيد: إشكالية القراءة وآليات والتأويل. المركز الثقافي العربي.ط6/2001/ ص: 228

ومن ثم تعالق النص الروائي بالشعبي ضمن بنية التعالق النصي (البنيصية) يعتبر بمثابة صلة الموصول. ربط الفرع بالأصل. وقد يعد ذلك دعوة أكيدة لإعادة النظر والتدبر في قدرات وثراء الخطاب التراثي الشعبي. وقد تفسر تجليات الشعبي كشظايا أو بقايا نصوص في المسرودات كزينة فكرية وحكائية عتيقة. أو عجائبي ينـــزاح للطرفة والفكاهة. كما يتجلى بنية محورية لشفرة الملغز وفض الغامض.

ومن جهة فإن حضور الموروث الشعبي في النص السردي والرواية على وجه التحديد بصفتها أكثر السرود احتضانا للموروث الشعبي هي دعوة أيضا إلى التفكير (بجدية وصرامة في الذات العربية وواقع الإنسان العربي في تاريخه وتراثه وآفاقه بدون نرجسية كاذبة أو وهم خادع يحول بيننا وبين رؤية ذاتنا ذاتها كوجود وطرائق للتفكير في آن معا في الزمان والمكان. ويجدر بهذه الرؤية أن تنطلق في الرغبة في ما كان لهذه الذات أن تكون عليه. في الماضي والحاضر والمستقبل. ولكن أن تصورها بالصورة التي يمكن أن تسهم في تشكيل الإنسان العربي الجديد (الممكن) القادر على (فهم) ومواجهات أمريات العصر، وتحديات الواقع. وهذه الرؤية هي ما يمكن أن تتسم به نظرتنا إلى الماضي بلا عقد وبلا مغالطات، لأن الماضي بشكل أو بآخر ممتد في حاضرنا.)[1]

إن النص الروائي وهو يقيم تعالقاته المختلفة (تموضعات التناص) مع شظايا التراث الشعبي أو الموروث التراثي عموما يكون بذلك يستحضر ماضي المجتمع في فترة تحددها الوظائف والأفعال المستدعاة وعلى مستوى الشخصيات الفاعلة (البطل الشعبي) بصفتها نماذج صوتية اجتماعية ونماذج فكرية تقرأ الذات المعاصرة ذاتها وتقيم وتصوب قيمها وتطلعاتها الراهنة على ما تراه سبيلا لتحقيق غاياتها. قياسا واقتداء بما رصدته من قيم راسخة يقدمها الموروث الشعبي، بصفته متعاليا وسياقا لمحمولات فكرية واجتماعية.

وليس بالضرورة أن يمثل التراث الشعبي سياقات ثقافية بالمفهوم العلمي والمعرفي والأكاديمي لمعنى الثقافة. حسبه أنه يقدم نفسه سياقا اجتماعيا يحمل تسجيلات لمرحلة من مراحل المجتمع وأنه تمفصل فكري في صيرورة المجتمع. فتوظيف الشخصيات الشعبية والأبطال كثيرا ما يتقصد الأشخاص الواقعيين بالفعل. بالرغم مما صاحب هذه الشخصيات من هالات عجائبية وحتى خرافية إلى درجة التهويل واللامعقول.

فكثير من أبطال السير الشعبية والحكايات والمرويات أشخاصها واقعيون. لكن الراوي النكرة خلع عليها هالات عجائبية من قيم وأفعال خارقة ومواقف نادرة. إلا أن واقعيتها ظلت راسخة مع كل الروايات وما تختص به كل رواية من صيغ وأساليب سردية.

---

1 – د. سعيد يقطين: الكلام والخبر. م. س. ص: 16

وما نشهده من عودة قوية للروائيين إلى التراث، وتوظيف صيغه وأساليبه والتفنن في توظيفها والاستعانة ببنياته الحكائية إلا دليل على ثراء وتميز النص الحكائي الشعبي. فقد تجلت في الرواية بقايا الشعبي سواء النصوص الشعبية الحكائية، أو الصيغ الحكائية الجاهزة. وصيغ المقول، أو توظيف الدارج أو العامي. وبعض أنماط التعابير الجاهزة. التي ما تزال الطبقات الشعبية تتناقلها مع ما يلحق بنيتها من تحريف بالنقصان أو الزيادة. ومن هنا نسبت إلى (الشعب) أي أنها نصوص جماعية مفتوحة، لأنها كما يقول سعيد يقطين غير مكتملة: (ولا يمكنها أن تصل إلى درجة (الانغلاق). إلا بعد طبعها)[1].

إن حاجة النص الروائي إلى توظيف التراث الشعبي أكيدة، أملتها رغبة الناص في خوض غمار التجريب الفني وإثراء النص الروائي بما هو أصيل، وثابت. ونموذجي ضمن تموضعات، وتمظهرات متنوعة، بغية دفع القارئ إلى إعادة النظر في التراث الشعبي.

إن هذا التوارد النصي وتعلقاته وتفاعلاته في الرواية يتخذ كامل (أبعاده في ممارسة التعلق من خلال تعالق النصوص وتفاعلها، وعلى مستويات متعددة)[2]، ومن ثم إقامة طرائق سردية وانبنائها على تشكيل غير نمطي. وبذلك إعادة كتابة التراث الشعبي بطرق رسمية ضمن نص رسمي له معاييره وأسسه السردية. ومن ثم يغدو التراث رافدا جماليا وابستومولوجيا، متجاوزا لبنيته الشعبية وهو بذلك فتح جديد ودافع إلى (ممارسة تنحو نحو الإبداع من داخل التراث وتنتج نصا يأخذ ملامحه وسماته الخاصة. ليس من التراث نفسه، ولكن من نوع التصور الذي يحكم هذه الممارسة ويجعلها بنت واقعها وسليلة عصرها)[3] .

وفي الأخير ونحن نشمر الكلام يمكن القول أن التعامل مع التراث، التراث الشعبي خاصة، نحسب أنه ما يزال يحتاج إلى دراسات جادة وعلمية خاصة على مستوى البحث الجامعي، يمكن لهذه الدراسات أن تسهم في تعميق معرفتنا بالتراث الشعبي، وخاصة في حقل توظيفاته السردية، باعتبار الرواية أكثر الأجناس الإبداعية حضورا، وأنها الحقل الثقافي الجماعي الذي يحتضن التراث والتراث الشعبي بالذات تجسيدا للوعي الجديد للتراث. لأن التراث هو الأكثر تمثيلا للذاكرة الجماعية وللذات والهوية. ولأنه مرتبط ارتباطا وثيقا باليومي والمعيشي، مما يستلزم من السارد المبدع استلهامه في نصه السردي وإعمال الأدوات الجديدة والكفيلة بإثارة مكامن المسكوت عنه والمغيب في ذاكرة المجتمع، وبعثه خلقا جديدا.

---

1 – سعيد يقطين . قال الراوي . البنيات الحكائية في السيرة الشعبية . المركز الثقافي العربي. ط1 –1997. ص: 221.

2 – د. سعيد يقطين . الرواية والتراث السردي . من أجل وعي جديد بالتراث . رؤية للنشر والتوزيع.ط1/ 2006/ ص: 190.

3 – م. ن. ص: 190.